

# خطابات العرب وحرب الخطابات..

عبد ه إبراهيم علي

بيننا، وإنما علينا استدعاء تاريخ الصراعات العربية- العربية للتعرف على طبيعة هذه الخطابات، وتحولها بهذا الشكل، ومحاولة تفسيرها بالشكل الذي يساعدنا على صياغة استراتيجية يمكننا من خلالها الحيلولة دون التدهور في اهتمامنا بقضايانا إلى هذا الحد، ومحاولة القضاء على هذا التهميش وهذا التجاهل الذي قد يكون متعمداً من البعض، وغير متعمد من الجانب الآخر، ولكن ضغوط الداخل تفرض نفسها. وهو الأمر الذي جعل البعض يطالب بضرورة التوجه إلى الداخل الذي هو في حاجة للدعم والمناصرة «أيها السادة المنتفضون من أجل النساء والأطفال في غزة، نحتاج إلي انتفاضتكم من أجلهم أيضاً في جميع المواقف، نحتاج ألا نسمع أصواتكم الاستهزائية، عندما نطالب بتجريم الختان، أو وقف جرائم الشرف، أو تحديد سن زواج البنات بالثامنة عشرة، أو التبرع من أجل إنقاذ أطفال الشوارع»<sup>(١)</sup>.

ولكن الخطاب المطلوب هو ما عبر عنه أحد الكتاب كالتالي «إلى أنصار مبارك ومعارضيه.. إلي المتعاطفين مع حماس وكارهيها.. إلينا جميعاً.. الأمر لم يعد يتعلق بغزة ولا حماس، ولا بأنظمة وطنية وأخرى تابعة، ولا بمحور سوري- إيراني، أو مصري سعودي.. الأمر يتعلق بوجود جزار على حدودنا، جزار في قلب الدار.. جزار بلا ضمير، جزار لن يرحم عدواً ولا حبيباً، جزار مدمن ذبح، ومجرم حرب.. وليس من مصلحة مصر ولا مصلحة العرب، وكل الشعوب الحرة، أن يخرج هذا الجزار منتصراً، حتى لو كان الثمن، بالنسبة لكارهي حماس، رأسها.. فبعد كل مذبحه خرجت تل أبيب تطلب المزيد»<sup>(٢)</sup>.

مقدمة:



لا يمكن تجاهل ما يحدث على الساحة الإقليمية في الوقت الراهن من تصورات عقب العدوان الإسرائيلي على غزة، فقد خلقت هذه الحرب صوراً سلبية ليس بين الدول العربية على المستوى الرسمي فقط، ولكن هذه الصور أصبحت بين الشعوب العربية ذاتها، وقد لا تكون هذه هي المرة الأولى التي تصل فيها الخلافات العربية - العربية، إلى خلافات زجت بعض الأنظمة الرسمية بالشعوب إلى هذا الحد، ولكن الجديد في الأمر هو السعي إلى تكريس هذه الحرب وتأصيلها واستعداد الشعوب العربية على بعضها البعض وذلك من خلال سياسات بعض الدول العربية وتماهيها مع الدولة العدو.

الأمر الذي يفرض نفسه على الباحثين والمهتمين لدراسته والتعرف على جوانبه ومنطقاته، خصوصاً أن هذا العداء أصبح يتشكل في خطابات عدائية تسهم العديد من الفئات في صياغتها سواء بالقول أو بالفعل، ومن ثم نطرح تساؤلاً نراه جوهرياً وهو: لماذا -غالباً- في العالم العربي ما يتحول الخطاب حول بعض الأحداث، والحرب في قمتها، إلى حرب خطابات؟

إن الأمر بات يشكل خطورة شديدة خصوصاً أنه يتعلق بقضايا كبرى في تاريخنا وثقافتنا ووجودنا نفسه، فقد أسهمت مثل هذه الخطابات في تقزيم العديد من قضايانا الجوهريّة وخصوصاً قضية فلسطين التي تراجعت وتقرّضت إلى الدرجة التي أصبحت فيها تخص فصيلاً بعينه فقط، وأصبح الخطاب حول هذه القضية هو لوم حماس على ما فعلته بالقضية الفلسطينية. إلا أن هذا الأمر يجب ألا يسود

## كانت فتح هي من يحدد الاتجاه العام للحركة الوطنية طوال ربع القرن الماضي ولكن دور فتح أخذ في التراجع

ذاته يبقى كامناً كالبركان يستعد للانفجار في أي لحظة. ولذلك فبمجرد ضعف أو اختفاء تأثير العوامل التي أدت إلى التهدة أو التسوية أو ظهور عوامل جديدة تدفع إلى الصراع تبدأ الصراعات في التصاعد من جديد حتى نصل إلى عامل تهدة أو تسوية جديد أو أكثر وهكذا<sup>(٣)</sup>.

ونظراً لطبيعة تشابك وتعقد مجال العلاقات الدولية وخصوصية المنطقة العربية من زرع كيان استيطاني فيها مدعوماً بقوى دولية كبرى فمن الضروري البحث عن موقع القوى الكبرى من الصراع في المنطقة ليس بغرض القول بمسئوليتها الكاملة عن هذا الصراع، ولكن للتعرف على حدود دورها وتعاملها مع القوى المختلفة في المنطقة، خصوصاً أن العقد الأخير قد شهد تغيراً نوعياً على الساحة الدولية من انفراد الولايات المتحدة بمقدرات النظام العالمي، وأحداث ٩/١١/٢٠٠١، التي خلقت أوضاعاً شديدة التعقيد أثرت على العلاقات العربية- العربية من ضمن تأثيراتها على الأوضاع في العالم أجمع.

من الجدير بالذكر الإشارة إلى أن حرص الولايات المتحدة الأمريكية على ضمان أمن إسرائيل واستمرار تفوقها على الدول العربية جعلها تغض الطرف عن أي ممارسات غير ديمقراطية تتخذها النظم العربية التي وقّعت اتفاقات سلام مع إسرائيل لتمرير هذه الاتفاقات وتحجيم القوى والتيارات الراضية لها<sup>(٤)</sup>.

ترتب على أحداث سبتمبر ٢٠٠١ أن أصبحت دول عربية عديدة موضوعة في دائرة الحرب الأمريكية ضد الإرهاب سواء بدعوى سعيها لامتلاك أسلحة الدمار الشامل، كما هو الحال بالنسبة إلى العراق، أو بدعوى وجود عناصر وتنظيمات تعتبرها الإدارة الأمريكية إرهابية على أراضيها، كما هو الحال بالنسبة إلى سوريا ولبنان، أو وجود عناصر وشبكات ذات صلة بتنظيم القاعدة على أراضيها كما هو الحال بالنسبة إلى اليمن والصومال<sup>(٥)</sup>.

### سياسة فرق تسد

وتقوم هذه السياسة في مضمونها على محاولة الإبقاء على الدول المتنافسة مع الدول (الكبرى/ الاستعمارية) في حالة من التفكك والانقسام لإضعاف قواها وخلق الثغرات التي يمكن النفاذ منها ضمناً لعدم حدوث اختلال قوي في غير صالح هذه الدولة، وأوضح الأمثلة على هذا سياسة فرنسا تجاه ألمانيا التي

وهو ما يفرض علينا ضرورة الوعي بخطاباتها وصياغتها بشكل يمكننا من التعرف على مساراتها وبيئتها المختلفة داخلياً وخارجياً، وعليه فإن التعرف على بيئة هذه الخطابات وسياساتها من جانب وعناصرها وأطرافها من جانب آخر يمكننا في النهاية من التعرف على كيفية تحولها إلى حروب خطابات بعدما كانت خطابات حول الحروب.

### «ماذا البديل»؟

في واقع الأمر لم يكن ذلك هو المخطط له من البداية، ولكن كانت الدراسة سوف تعتمد على عدد من الصحف وهي الأهرام والمصري اليوم والبديل والوفد، إضافة لصحيفتي الحياة والشرق الأوسط. ولكن لظروف كثيرة من بينها حجم ما كُتب عن غزة في الفترة محل الدراسة، وظروف الوقت كانت هناك استحالة أن يتم البحث في الوقت المحدد له بهذه الصورة ومن ثم لجأت إلى اختيار صحيفة البديل من بين هذه الصحف وإخضاعها للدراسة؛ وذلك لأن الأهرام والوفد تعبران عن وجهة نظر حدية، والحياة والشرق الأوسط لا تعبران عن الخطاب الصحفي المصري، بقيت لدينا البديل والمصري اليوم، ومن خلال الرصد تبين للباحث أن صحيفة البديل تمتاز بتنوع أكثر وكثافة أكبر أتاحتها للباحث رؤية الخطاب حول الأزمة بصورة أفضل، ورغم سميتها اليساري الواضح فقد تميزت بالتنوع والانفتاح على جميع التيارات، وهو الأمر الذي ساعدنا على التعرف على مفردات الخطاب الإعلامي حول الأزمة.

وقام الباحث بتحليل مقالات الرأي والأعمدة الصحفية، في صحيفة البديل بدءاً من العدوان على غزة (٢٧/١٢/٢٠٠٨) وحتى نهاية شهر فبراير (٢٨/٢/٢٠٠٩).

### بيئة الخطاب:

تتضمن بيئة وسياق حرب الخطابات التي نشبت على هامش العدوان الإسرائيلي على غزة بين الدول العربية التعرف على الصراعات العربية- العربية، ونشأة هذه الصراعات وهل لها علاقة بهذه الحروب الكلامية أم أن المسألة نشأت مع العدوان الإسرائيلي على لبنان (الموقف العربي منه) وتعمقت مع الخلاف الفلسطيني الداخلي؟

وفي إطار بحثنا عن هذه العلاقة بين حروب الخطابات العربية والمحاور التي تقف وراءها تجدر الإشارة إلى أن الصراعات العربية- العربية ليست وليدة اليوم أو منذ العدوان الاسرائيلي على لبنان ٢٠٠٦، ولكن هذه الصراعات قديمة قديم نشأة النظام العربي ذاته، كما أن هذه الصراعات غير ثابتة ولكن استمراريتها رغم هذا التفاوت تدل على أن الصراعات العربية لا تحل ولكن تتم تهدنتها أو على أحسن الفروض تسويتها تحت تأثير عامل أو آخر، بما يفيد أن محتوى الصراع

فقد أدت الحرب الإسرائيلية على لبنان وحزب الله إلى مزيد من الانقسام العربي بين من وقفوا إلى جانب حزب الله أو من تعاطفوا معه مثل سوريا وحركتي حماس والجهاد، ومن حملّ الحزب مسئولية اندلاع الحرب مثل مصر والسعودية والأردن. فقد بدا وكأن نجاح إسرائيل في توجيه ضربة مؤلمة لحزب الله لن تؤدي إلى تقرير مصير الأمة اللبنانية وحسب بل إلى تغيير المناخ الإستراتيجي في المنطقة ككل، ولعل هذا ما قصده وزير الخارجية الأمريكية عندما رفضت بمطالبة إسرائيل بوقف إطلاق النار، واصفةً معاناة اللبنانيين بأنها مخاض شرق أوسط جديد.

انتهت الحرب بقرار مجلس الأمن الدولي ١٧٠١، الذي وفر لإسرائيل وجوداً دولياً إضافياً في الجنوب اللبناني بصلاحيات أعلى من الوجود الدولي السابق، الذي كانت مهماته تقتصر على الرقابة وحسب، ولكن الضغط الأمريكي لصالح الدولة العبرية في مجلس الأمن لم يستطع إخفاء الهزيمة التي تعرض لها الجيش الإسرائيلي في الجنوب اللبناني، وبدلاً من أن تؤدي الحرب إلى تغيير المناخ الاستراتيجي في المنطقة لصالح التوجهات الأمريكية- الإسرائيلية فقد أدت إلى تعزيز هائل في معنويات حزب الله والقوى المؤيدة له. في لبنان تعمق الانقسام، وفي فلسطين اعتبرت حكومة حماس أن انتصار حزب الله هو انتصار لها أيضاً، أو على الأقل لما تمثله<sup>(١٠)</sup>، وعلى المستوى العربي تشكل محور الاعتدال حسب الرؤية الأمريكية أو ما أطلقت عليه محور السلام، وهو المحور الذي يتكون من مصر والمملكة العربية السعودية والأردن، ومحور الممانعة أو المقاومة والمكون من إيران وسوريا وحزب الله وحركة حماس، وقد أبرز العدوان الإسرائيلي على غزة التباين بل والعداء بين المحورين.

وعن الصراع الفلسطيني الداخلي أو ما يطلق عليه الصراع الفلسطيني- الفلسطيني، نجد أن الأوضاع قبل العدوان الإسرائيلي على غزة كانت قد وصلت إلى درجة من الانقسام والصدام والصراع بين طرفي الداخل إلى حد إراقة الدماء الفلسطينية، فقد أثار حسم الصراع في قطاع غزة لصالح حماس ردود فعل سياسية سلبية فلسطينياً وعربياً ودولياً، كما أثار جدلاً فكرياً في الساحتين الفلسطينية والعربية؛ فقد شابته عملية الحسم تجاوزات بالغة من الطرفين؛ كما مثلت لحظة مؤلمة أخرى من الاشتباك الفلسطيني؛ وأضافت انقساماً فلسطينياً وطنياً إلى الانقسامات العربية الداخلية المتفاقمة في العراق ولبنان. ولكن دلالات الحسم السياسية هي الأهم بالتأكيد سواء فيما يتعلق بالموقع الذي تحتله القضية الفلسطينية عربياً وإقليمياً ودولياً، أو بعملية التحول المرتبكة التي تشهدها المجتمعات العربية والإسلامية ودور القوى الإسلامية السياسية ومستقبلها في هذه العملية.

اعتبرتها القوة الرئيسية المناوئة لها في أوروبا، وكذلك السياسة السوفيتية في أوروبا التي قامت على معارضة جميع أشكال الاتحاد أو الاندماج الأوروبي على أساس أن هذا الاندماج كان لابد أن ينتهي بخلق كتلة غربية معادية للاتحاد السوفيتي، وفي ذلك ما فيه من تهديد لمصالح الاتحاد السوفيتي وأمنه القومي<sup>(٦)</sup>. وتجسد الولايات المتحدة الأمريكية إزاء الدول العربية في الوقت الراهن انعكاساً لهذه السياسة؛ حيث كشفت وعمقت الانقسامات العربية خصوصاً بعد أن صكت مفاهيمها لهذه البلاد ووصمتها بمحور الشر، في مقابل الدول العربية الأخرى التي أسهمت معها في القضاء على الإرهاب من جانب؛ ولتتميز علاقتها بإسرائيل سواء من حيث وجود علاقات دبلوماسية كاملة أو استعداد لوجود مثل هذه العلاقات من جانب آخر وأصبحت هذه الدول يطلق عليها طبقاً للمصطلح الأمريكي دول الاعتدال، الأمر الذي يطرح تساؤلاً: هل نحن في إطار بنوي عربي يحتوى على مشكلات عربية بنوية؟

من الضروري الإشارة إلى أن للقوى الكبرى مصالح في الوطن العربي، ومن البديهي أن تسعى إلى تحقيق هذه المصالح والحفاظ عليها، ومن البديهي كذلك أن تكون إحدى أدواتها في هذا المسعى سياسة «فرق تسد»، غير أن مدى نجاحها في هذه السياسة يتوقف على مناعة الجسد العربي ودرجة قوة مصادر الصراع الذاتية فيه<sup>(٧)</sup>.

من الأهمية بمكان تأكيد أن الأداة الدعائية (الإعلامية) هي من أهم الأدوات وأكثرها انتشاراً في الصراعات العربية- العربية<sup>(٨)</sup>، وقد يكون للثورة التكنولوجية الراهنة في وسائل الاتصال والإعلام دور في تعظيم هذه الأداة في الصراعات بشكل عام والصراعات العربية- العربية بشكل خاص.

وقد أفرز الأمر السابق الحديث عن الصراع بين المحاور، الأمر الذي قد يتصوره البعض على أن هذه الفكرة بدت حديثة نسبياً، ولكن الأمر أقدم من ذلك بكثير. في الوقت نفسه لا يمكننا الحديث عن مسئولية كاملة للدول الكبرى عن هذه المحاور أو الخلافات العربية، ولكن دائماً سياسة المحاور تكون لها أطراف خارجية تعمل على تحريكها وتغذيتها.

إلا أنه من الضروري الإشارة إلى أن هذه الصراعات العربية- العربية ذات الطبيعة الحالية قد تبلورت منذ الحرب العراقية الإيرانية؛ حيث أدت هذه الحرب ومواقف بعض البلدان العربية منها إلى ظهور أبعاد جديدة في ظاهرة الصراعات العربية- العربية<sup>(٩)</sup>، تشكلت في الموقف أيضاً من الغزو العراقي على الكويت، وبرزت بشكل أكثر وضوحاً في العدوان الإسرائيلي على لبنان، وتجسدت في وضعها الراهن في العدوان الإسرائيلي على غزة مطلع العام الحالي.

## هناك العديد من الحلول التي تملكها مصروالتي يمكن من خلالها القيام بأمر أفضل كثيراً مما قامت به إزاء هذا العدوان

إلى أن السلوك المصري لم يكن يوازي الموقف المصري أو الدور التاريخي لمصر، وهناك من وجه اتهاماً مباشراً لمصر ولنظام الرئيس مبارك ومسئوليته عما يحدث في غزة «يتجاهلون أن حسني مبارك هو آخر رئيس التقاه زعماء إسرائيل قبل ساعات من تنفيذ المذبحة. يتناسون أن حسني مبارك يتبني إبادة حركة حماس وكل المعارضة الفلسطينية»<sup>(١٢)</sup>.

في حين أن البعض اتهم صراحة النظام المصري وعلى رأسه الرئيس مبارك بأنه بات يستمتع بلعب دور الوسيط «أزمة نظام مبارك تعود إلى أسباب كثيرة، بينها أنه أذمن دور الوسيط، ففور ظهور أي أزمة بين إسرائيل والفلسطينيين يتهيأ هو وطاقمه للوساطة، قبل أي تفكير في مكانة ودور ومصالح مصر، والخطوات الصحيحة التي ينبغي أن تتخذها، انطلاقاً من دورها ومكانتها وإدراكها لعمقها»<sup>(١٣)</sup>.

وهذه المنتقدون أكثر من ذلك وأشاروا إلى وجود مشاركة فعلية لمصر في العدوان، وذلك من خلال الحصار «شارك النظام المصري علي مدى شهور طويلة في إحكام الحصار حول الشعب الفلسطيني في غزة، واختار أن يواصل إحكام الحصار على الحدود في مواجهة أي عون إنساني وصل إلى المنفذ الوحيد في رفح، وفي مواجهة أي فلسطيني قد يحاول الفرار من القصف الإسرائيلي»<sup>(١٤)</sup>.

وتعاطف هذا النقد بعد وجود تصريحات علنية أمريكية وإسرائيلية، منها كلمات الرئيس الأمريكي جورج بوش الذي توجه بالشكر لمصر «أما حالة مصر فهي الأعمى والأعرج. كيف يمكن لنا أن نفسر أن تهبط مصر العظيمة التي بشرت ونجحت في فرض انتصار حركات التحرر الوطني إلي السياسات الحالية والتي شكرها جورج بوش واعتبرها دعماً للعدوان الإسرائيلي؟»<sup>(١٥)</sup>

كما اهتم البعض برصد تصريحات وزير الخارجية المصري أحمد أبو الغيط التي أكد فيها أن مصر حذرت حماس ولكن حماس هي من تجاهلت التحذيرات المصرية؛ حيث اعتبر المنتقدون لمصر أن هذا التصريح يحمل إدانة شديدة للنظام المصري، وبالمناسبة فقد تم استغلال هذا التصريح من قبل الطرفين المهاجم والمدافع عن الدور المصري في غزة: «فقد حمل تصريحاً مفاجئاً للسيد أحمد أبو الغيط، وزير الخارجية المصري، بأننا.. حذرنا وعلى من لم يسمع

لقد قادت حركة التحرر الوطني الفلسطيني (فتح) النضال الفلسطيني منذ سنة ١٩٦٩. وبالرغم من التعددية السياسية والأيدولوجية التي تتسم بها الساحة الفلسطينية، كانت فتح هي من يحدد الاتجاه العام للحركة الوطنية طوال ربع القرن الماضي. ولكن دور فتح أخذ في التراجع منذ الانتفاضة الفلسطينية الأولى، وفعلاً قدم فوز حماس في الانتخابات التشريعية الأخيرة في الضفة والقطاع مؤشراً ملموساً على التراجع الفتحاوي وعلى صعود التيار الإسلامي السياسي. اتجهت الأزمة السياسية التي ولدتها عملية الحسم في قطاع غزة نحو التعقيد سواء لرغبة دوائر معينة داخل السلطة الفلسطينية في إبقاء الأوضاع على ما كانت عليه أو للضغوط التي تمارسها الإدارة الأمريكية والحكومة الإسرائيلية على رام الله، أو لأن المفاوضات الجارية منذ نهاية ٢٠٠٧ حول تسوية نهائية ما للصراع على فلسطين تتطلب استبعاد حماس عن مواقع القرار للسلطة الفلسطينية<sup>(١٦)</sup>، وهو الأمر الذي سعى إليه العديد من الأطراف سواء السلطة الفلسطينية أو بعض الأطراف العربية الفاعلة كمصر، أو على المستوى الدولي كالولايات المتحدة الأمريكية والدول الأوروبية، إضافة إلى إسرائيل.

ومن الأهمية بمكان تأكيد أن سياسة المحاور تنتج عنها قضايا وأحداث تتحول إلى خطابات ثم تتحول إلى حروب بين هذه الخطابات، كما أن سياسة المحاور أيضاً تكون في إطار جملة من المواقف حيال قضايا جزئية. لكن تظل الأحداث التي تتعلق بالحروب (على سبيل المثال: الحرب العراقية- الإيرانية، الغزو العراقي للكويت، العدوان الإسرائيلي على لبنان ٢٠٠٦، العدوان الإسرائيلي على غزة ديسمبر ٢٠٠٨، يناير ٢٠٠٩) تظل أحداثاً كاشفة لفكرة المحاور وبيئتها وفكرة تحول خطاب الحروب إلى حروب الخطابات.

### أولاً: خطابات الحرب:

#### أ - الموقف من مصر:

#### ١ - الخطاب المهاجم للموقف المصري:

تجسد الخطاب الذي هاجم مصر ودورها في العدوان الإسرائيلي على غزة في الخطاب الذي هاجم سلوك السياسة المصرية الخارجية مع العدوان قبل بدايته. فقد بدا حضور وزيرة الخارجية الإسرائيلية إلى مصر قبل العدوان بيوم واحد وكأن مصر مشاركة لإسرائيل في هذا العدوان، إضافة لتصريحات وزير الخارجية المصري الذي قال بأن مصر حذرت حماس ولكن حماس لم تأخذ الأمر بجديّة، وهو الأمر الذي تنهاه المدافعون عن النظام المصري. إلا أن هذا السلوك المصري أنتج خطاباً شديد اللهجة ضد السياسة المصرية والرئيس مبارك ووزارة الخارجية المصرية، أكد تورط مصر في العدوان الإسرائيلي على غزة. فقد أشار الكتاب المنتقدون للدور المصري

الحقيقي هو إسرائيل، فإن هناك من اعتبر أن حماس هي المسؤولة عن هذه الأوضاع، وأنها هي التي وصلت بالأمور إلى حالتها الراهنة. من ناحية أخرى، فإن خطاب بعض اليساريين أنفسهم حول حماس اختلف بعد وقف القتال عنه وقت العدوان على غزة؛ فقد دافع هذا الخطاب أثناء العدوان على غزة عن حق الشعب الفلسطيني في المقاومة، وأن ما تقوم به إسرائيل هو جرائم ضد الإنسانية تجب المطالبة بمحاكمتها عليها، ولكن عقب توقف القتال تحدث أصحاب هذا الخطاب عن غطرسة حماس ومسئوليتها عما حدث من عدوان إسرائيلي.

وجاء الخطاب اليساري المؤيد لحماس وقت العدوان حيث أشاروا إلى موقفهم «وإذا كنا نؤيد حماس وفصائل المقاومة الأخرى المشاركة في المقاومة فلا نؤيدها اعترافاً بأيديولوجيتها المتأسلمة فنحن نرفضها جذرياً من هذه الوجهة، لكن نؤيدها من موقف مقاومتها للعدو الإسرائيلي، هذه المقاومة التي تتسع لكل الأيديولوجيات في تناقضها الرئيسي مع الاستعمار العالمي وإسرائيل»<sup>(٢٢)</sup>.

كما أشاد البعض بالموقف اليساري الفلسطيني وقت المحنة «وهنا أود أن أحيي بيان الفصائل الفلسطينية اليسارية الذي تحلى بقدر كبير من المسؤولية والترفع عن الخلافات في وقت المحنة، فطالب بالتنسيق بين الفصائل كلها في ساحة القتال، وطالب بالإسراع في تحقيق الوحدة الفلسطينية»<sup>(٢٣)</sup>.

إلا أن البعض هاجم حماس في وقت الحرب مؤكداً أنها مسؤولة عن اختزال الصراع «فشل المشروع الحمساوي يعود إلى تلك النزعة (اللاتاريخية)، التي تختزل الصراع في بعده الديني الإسلامي واليهودي، وبشكل يتجاوز حقيقة أن الصهيونية كانت وستظل نتاجاً للتكوين الاستعماري الغربي، وفي مرحلة معينة من تطوره التاريخي. وهنا يجب إنعاش الذاكرة بشأن دور إسرائيل في تزكية نشأة (حماس) في أوائل الثمانينيات - إذ كان الهدف هو حضور الرمز والسند (الديني) كبعد حاكم للصراع، وعزل الجماهير عن أطياف النضال العلماني/الثوري والتحرري الذي وُلد من رحم تيار الاستقلال الوطني ومناهضة الاستعمار.. ومثل هذا الهدف لن يتسنى الوصول إليه إلا عبر تصحيح مسار قوى النضال الفلسطيني والعربي، وأن يستعيد اليسار دوره لصالح مشروعه الوطني وثورته الشعبية التقدمية، وبعيداً عن خلافات وتناقضات الفئات الوسطى التي تتنازع سلطة أو سلو الوهمية والتي تظل مثقلة بإثم ووزر جانب لا يستهان به مما يحدث في غزة»<sup>(٢٤)</sup>.

إلا أن اليسار الذي دافع عن حماس وقت الحرب عاد ليوقف في مكانه المعادي لها بعد انتهاء المحنة من وجهة نظره «علي المستوى السياسي الإقليمي، فتتصرف حركة حماس بالغرسة نفسها، وكأنها سلطة دينية تمنح وتمنع حق المرور إلى الجنة.

التحذيرات أن يتحمل العواقب»<sup>(١٦)</sup>. كما علق المنتقدون على الصورة التي تناقلتها وكالات الأنباء قبل يوم واحد من شن العدوان. وأشاروا إلى أن ليفني أرسلت للعالم رسالة من خلال هذه الصورة أن مصر دعامة إسرائيل في هذه الحرب «وظهر فيها أبو الغيط كأنه دعامة تتكى عليها وزيرة خارجية العدو الصهيوني، لم يكن يعلم أنها تسخره لخدمة نياتها العدوانية بعد ساعات قليلة من لقائها معه»<sup>(١٧)</sup>.

كما كان هناك خطاب ينتقد المبادرة المصرية ويراهها تعاني من مثالب كثيرة<sup>(١٨)</sup>، في حين يراها البعض الآخر أنها مؤامرة من النظام المصري، وأنها تبتز المقاومة لإلقاء سلاحها وتوقع على هدنة طويلة المدى يمكن من خلالها تجفيف منابع تهريب السلاح البدائي للمقاومة ضمن إجراءات أخرى كثيرة<sup>(١٩)</sup>.

ومع رفض المبادرة المصرية، هناك من طالب بدور مصري مختلف ليس بالضرورة شن الحرب على إسرائيل، ولكن هناك العديد من الحلول التي تملكها مصر والتي يمكن من خلالها القيام بأمور أفضل كثيراً مما تقوم بها مصر إزاء هذا العدوان، «لم يطلب أحد من مصر أو حسني مبارك إعلان الحرب على إسرائيل، أو رفع رايات الجهاد لنصرة العرب ضد الصهاينة، كل ما يطلبه الناس هو استعادة خيارات مصر في مواجهة كل دول العالم، وعلى رأسها إسرائيل. كل ما يطلبه الناس هو إلغاء السلام الاستراتيجي، كخيار وحيد بالغ الجبن والغباء»<sup>(٢٠)</sup>.

## ٢- الخطاب المدافع عن الموقف المصري:

على الجانب الآخر من هذا الخطاب هناك من يدافع عن النظام المصري ويرى أن النظام المصري فعل كل ما لديه، ولكن حماس هي التي سعت لهذه النتيجة؛ حيث بدأت في توجيه الصواريخ مجدداً إلى مدن الجنوب الإسرائيلي، مع تهديدات بتحويل جنوب إسرائيل إلى جحيم. في الوقت نفسه بذلت مصر جهوداً مكثفة من أجل ضمان تجديد تفاهات التهديد كخطوة أولى على طريق استئناف الحوار الوطني الفلسطيني الذي يعد المدخل الطبيعي لإعادة تمكين الموقف الفلسطيني، وهي الجهود التي رفضتها حركة حماس. ومع اقتراب موعد انتهاء التهديد بدأت مسيرات ومظاهرات في طهران ضد السفارة المصرية تهاجم مصر ودورها وتسبب قيادتها، محملين مصر مسؤولية استمرار الحصار على قطاع غزة. بعدها مباشرة انطلقت المظاهرات ضد مصر في الضاحية الجنوبية لبيروت، حيث سير حزب الله مظاهرات ومسيرات ضد مصر صباح يوم انتهاء التهديد<sup>(٢١)</sup>.

## ب - موقف اليسار من المقاومة:

لا يمكن الحديث عن خطاب يساري واحد أثناء العدوان الإسرائيلي على غزة. فبالرغم من أن البعض طالب بإرجاء الخلاف مع حماس؛ لأن هذا ليس الوقت المناسب له وأن العدو

## هناك من يدافع عن النظام المصري ويرى أنه فعل كل ما لديه ولكن حماس هي التي سعت لهذه النتيجة

حقيقي وفق ما يتطلبه الموقف «لو كان الحكام العرب يريدون، حقاً وفعلاً، وقف المجزرة الإسرائيلية في غزة، لعقدوا القمة العربية فوراً، في يوم الجمعة تنتهي إسرائيل من المهمة الرئيسية للمرحلة الأولى من العدوان، بالقصف من الجو والبحر والأرض، وقد تكون بدأت المرحلة الثانية من عملية «الرصاص المتدفق»<sup>(٢٧)</sup>.

بل أصبح النظام العربي يشارك إسرائيل والولايات المتحدة الأمريكية على حساب القضية الفلسطينية «نظم الحكم العربية، «ناضلت» فعلاً لتحوز ثقة أمريكا والغرب عموماً.. وقد وصلت بهذا النضال إلى مستويات، بل إلى طرق غير مسبوقة.. فهي قطعت الصلة فعلياً مع الانتماء العربي.. ومع القضية الفلسطينية.. اللهم إلا من باب الحرج.. وحتى هذا الباب لم يعد مفتوحاً.. وترتكب نظم عربية خيانات فاضحة ما إن تنظر من خلف هذا الباب فلا تجد شعوباً مهتمة»<sup>(٢٨)</sup>.

إلا أن هناك من فرق بين الشارع العربي والحكام العرب بقوله «بل إنه في الوقت الذي اندفع فيه الشارع العربي إلى التظاهر والاحتجاج لإعلان غضبه، كان العرب على مستوى القادة والملوك والرؤساء يمارسون الهجوم على بعضهم البعض، أكثر كثيراً من هجومهم على إسرائيل ذاتها. تلقفوا المذبحة لتصفية الحسابات ولاستخدامها كورقة للضرب هنا والمزايدة هناك.. إذا أردنا توصيفاً لحال العرب في هذه اللحظة المساوية لقلنا إن هناك شعوراً في الشارع العربي لكن لا يوجد موقف عربي»<sup>(٢٩)</sup>.

واعتبر البعض أن هذه المعركة تؤرخ لسقوط النظام العربي «ويرتبط بذلك أن أرخت مجزرة غزة للسقوط القاطع والنهائي للنظام الإقليمي العربي الذي يأخذ شكل ما يسمى جامعة الدول العربية. والذي يصح أن يقال إنه يعبر عن مصالح المشروع الصهيوني ويأتمر بإمرة وزيرة الخارجية الأمريكية أو الإسرائيلية، أكثر مما يعبر عن مصالح الدول العربية، ناهيك عن الشعب العربي وحقوقه في الحرية والعزة والكرامة»<sup>(٣٠)</sup>.

وهناك من تحدث عن فرصة شن حرب شاملة على إسرائيل «أمام الجبهة العربية المعادية لإسرائيل فرصة ذهبية لشن حرب شاملة عليها من طوق جديد يحيط بها من ثلاث جهات حدودية هي فلسطين وسوريا ولبنان.. وأمام هذا الطوق فرصة، فحرب غزة كشفت عن امتلاك حماس صواريخ تغطي كل مدن جنوب إسرائيل، وحرب لبنان كشفت قبلها عن

وبينما اختارت الحركة قطر حليفاً رئيسياً، فقد أخذت في استهداف مصر بصورة منهجية فصارت الدعاية ضد مصر أوسع بكثير من سهام تُلقى في صدر النظام، لتتهين مصر والمصريين أنفسهم أحياناً.. لهذا السبب بين أسباب أخرى حذرنا من إعلان النصر في موقعة غزة، ففضلاً عن أن هذا النوع من الحروب لا يوصف بالنصر والهزيمة، فأعلان النصر يستهدف في الحقيقة تحقيق أهداف سياسية لا تتسق مع الإمكانيات ولا مع المنطق ولا مع الواقع. وبهذا المعنى فمثل هذا الإعلان يضر الحركات الوطنية بأكثر كثيراً مما يفيدها»<sup>(٣٥)</sup>.

### ج- التيار الليبرالي وموقفه من الحرب:

وعلى عكس التيار اليساري جاء التيار الليبرالي ملتزماً بموقف الدولة المصرية الرسمي، وقد التزموا بالدفاع عن الموقف المصري وتبريره. ولعل الخطاب الذي يتحدث عن الدفاع عن مصر في الأزمنة يعبر عن الخطاب الليبرالي، الأمر الذي دفع البعض للقول بأنه «يمكن القول بأن ليبراليي العرب الجدد قد سئموا -فيما يبدو- وضع المظهر الذي لا تعرف أمتهم سواه، فراحوا لا يعرفون سبيلاً للتخفف من أعباء هذا الوضع الجاثم إلا عبر التوحد مع القاهر وإعادة إنتاجه. وبالطبع فإن ذلك يعني أن وضع هؤلاء الليبراليين -الذين اعتبروا أنفسهم جدداً، وليسوا قدامى- هو تجسيد، في العمق، لتركيب نفسي مرضي، بأكثر مما هو تفكيك لإشكال سياسي أو حتى معرفي.. وأما المظهر الثاني لبؤس هذه الليبرالية وزيفها، فإنه يتأتى من أنها -وعلى عكس أي ليبرالية حقة- تقوم على روح تمييزية تكاد تقترب من أن تكون روحاً عنصرية لما تنطوي عليه من عنف الإقصاء والمصادرة. فإن الرفاق الليبراليين الجدد لا يعرفون إلا أن يصبوا على رؤوس خصومهم، بل وجماهير مجتمعاتهم بأسرها، لعنات الطيش والغوغائية والجهل والإرهاب والظلمية، وبما يعنيه ذلك من لزوم الإبقاء على وضع الاستبداد الذي يزرع تحته هذا الجمهور؛ لأنه هو القادر وحده على ضبط سلوكه الطائش الأحمق. فإذا لم تبلغ تلك الجماهير مرحلة الرشد والعقلانية بعد، فإنهم ليسوا أهلاً لأن تكون لأرائهم وتصوراتهم أي قيمة أو اعتبار، وعليهم فقط أن يقبلوا ما يقرره لهم سادتهم الليبراليون من تصورات وسياسات، وإلا فإنهم يستحقون ما ينزل بهم من العقاب والزجر. إن المفارقة تتأتى، هنا، من أن الليبرالية تنتهي إلى تبرير الاستبداد بكل ما ينطوي عليه من غلظة وقسوة، وبما يعنيه ذلك من توظيفها، وهي الجديدة، لتغطية أسوأ أمراض العرب وأقدمها، والتي هي العجز والاستبداد طبعاً»<sup>(٣٦)</sup>.

### د - الخطاب حول مسئولية الدول العربية عن العدوان:

هناك من توجه بالخطاب إلى الحكام العرب ككل ويرى مسئوليتهم عما يحدث في غزة وتقاعسهم عن القيام بدور

للخبرة بالسياسة العربية<sup>(٣٦)</sup>. إلا أن هناك من يرى أن مشعل يلعب دوراً مهماً في الصراع الإقليمي في المنطقة لصالح إيران؛ حيث يخدم خط مشعل هذا التوجه في توتير الوضع الفلسطيني والعربي، فالقصد ليس المنظمة البديلة، فمنظمة التحرير لا تقيده في شيء، وتحالفاته مع المنظمات الأخرى لا تنتظر إذناً من أحد. وهو أول من يعرف أن منظمة بديلة لن تحظى بالشرعية الدولية، والقصد الحقيقي من إطلاق الدعوة، في هذا الوقت، هو إفساد المصالحة الوطنية الفلسطينية وإفشال المبادرة المصرية في أكثر عناصرها إيجابية، واستمرار الوضع متوتراً كما تريد طهران.. وهناك علامات أخرى على الطابع المغامر لخط مشعل، وعلى استغراقه في حرب المحاور<sup>(٣٧)</sup>.

إلا أن هناك من يرى أن حماس خانها التوفيق في هذا الطرح بعيداً عن صراع المحاور، ولكن للأسباب التالية:

أولاً: منظمة التحرير الفلسطينية ليست، بأي حال، هيئة من هيئات حركة «فتح»، وإنما هي إطار شامل للنضال الوطني الفلسطيني.

ثانياً: لقد ساعدت ظروف عديدة على أن تنال منظمة التحرير الفلسطينية ما نالته من اعتراف عربي وعالمي، ومن جدارة النطق باسم شعب فلسطين، والحق في التعبير عن آماله وتطلعاته الوطنية.

ثالثاً: مزاعم «خالد مشعل»، التي تبدأ بأن المنظمة الراهنة «لم تعد تمثل مرجعية للفلسطينيين، وتحولت إلى إدارة لانقسام البيت الفلسطيني»، وتنتهي بالتبشير بأن حماس ستبني «مرجعية جديدة، بديلاً عن منظمة التحرير» توحد شعب فلسطين، وتمثل فلسطيني الداخل والخارج، وتضم جميع القوى الوطنية الفلسطينية، وقوى الشعب وتياراته الوطنية؛ لا يمكن التعويل عليها<sup>(٣٨)</sup>. ويرى هذا الخطاب أن من حق حماس أن تطالب بإصلاح أحوال منظمة التحرير الفلسطينية، وأن تضغط بكل قوة لتحقيق هذه الغاية، لكن ليس من حقها أن تهدم المعبد فوق رأسها ورأس شعبها، فتكون بذلك كمن يكمل ما بدأه عدو الوطن والأمة!<sup>(٣٩)</sup>

## ٢ - الدفاع عن حماس:

وهناك من دافع عن حماس متبنيًا وجهة نظرها مؤكداً أن حماس تقوم بفعل ما تخلت عنه الدول «حماس ليست خطراً على الأمن القومي المصري؛ لأنها تقوم بعمل تخلي عنه كل الأطراف بدءاً من مصر نفسها مروراً بالأردن وانتهاءً بالجنح المسيطر على فتح اليوم، أي بالدفاع عما تبقى من كرامة، في الدفاع عما تبقى من فلسطين التي ضيعها العرب. إن مقاومة المحتل ليست إرهاباً ولا تخريباً ولا يجب أن يجرم ويحاصر»<sup>(٤٠)</sup>.

امتلاك حزب الله ترسانة صواريخ تغطي كل شمال إسرائيل وبعض مدن الوسط.. وسوريا تملك صواريخ تغطي كل إسرائيل بطولها وعرضها»<sup>(٣١)</sup>.

## هـ - الخطاب حول أطراف الصراع من فلسطين:

هناك من انتقد الطرفين الفلسطينيين مشدداً على أن تجارب العقود الماضية تؤكد أن عداء الأنظمة العربية لشعوبها يفوق عداءها لإسرائيل، فإن تجربة العدوان الإسرائيلي الراهن، تؤكد أن عداءات «فتح» و«حماس» لها الأولوية، وأكثر عمقاً من عدائهما لإسرائيل<sup>(٣٢)</sup>.

## ١ - الهجوم على حماس:

هناك من يرى أن استراتيجية حماس وتكتيكاتها الراهنة تقود النضال الفلسطيني إلى طريق مسدود «لا تتبني حماس أسلوب الجبهة الوطنية المتحدة، وهو الشرط الموضوعي لإمكان نجاح نضال الشعب الفلسطيني. إنها لا تؤمن بالعمل المشترك لا مع فتح ولا مع أي فصيل آخر من الفصائل الفلسطينية»<sup>(٣٣)</sup>، أو القول بأن «حماس» أخطأت في اختيارها الوقت المناسب عندما أطلقت صواريخها، لاشك أن «إسرائيل» أعدت هجومها الأخير على «غزة» منذ فترة طويلة مستفيدة من دروس الحرب التي شنتها على «لبنان» سنة ٢٠٠٦. لذلك يؤكد البعض أنه كان مقررًا بصرف النظر عن الصواريخ التي أطلقتها «حماس» على «إسرائيل». مع ذلك استغلت «إسرائيل» هذا التصرف من قبل «حماس» لتبثّر هجومها أمام الرأي العام العالمي في مرحلة كثر الحديث فيها عن الإرهاب الإسلامي.

وهناك من وظّف حماس مدخلاً في المطالبة بإبعاد الدين عن الشؤون السياسية، مؤكداً أنه لن تقوم لمنطقتنا قائمة إلا بعد تخلي التيارات السياسية القائمة على الدين، من جميع أديان الشرق الأوسط، عن استنكارها واستخفافها بمصالح الناس الحياتية. تدين السياسة سواء كان يهودياً أو إسلامياً أو مسيحياً<sup>(٣٤)</sup>.

## حماس وبديل منظمة التحرير الفلسطينية:

تعرضت حماس لخطاب هجومي من العديد من الأطراف العربية وحتى بعض المتعاطفين معها؛ وذلك بسبب طرحها لإيجاد بديل لمنظمة التحرير الفلسطينية. بل اعتبر البعض أن مثل هذا الأمر خطيئة لن يغفرها لها التاريخ؛ لأنها بذلك تهدر تضحيات ونضالات أجيال متعددة؛ ولأنها تهدر بذلك مكاسب دولية حققها الشعب الفلسطيني على مدار سنوات طويلة، وسوف تسهم بهذا المسعى في انقسام الصف الوطني الفلسطيني وهز صورة الشعب الفلسطيني عالمياً<sup>(٣٥)</sup>. كما اعتبر البعض الآخر أن الاعتقاد بإمكانية إيجاد بديل سريع لمنظمة التحرير الفلسطينية يكشف بوضوح عن افتقار خالد مشعل

## على عكس التيار اليساري جاء التيار الليبرالي ملتزماً بموقف الدولة المصرية الرسمي

وتحدث هذا الخطاب عن وجود أهداف لإسرائيل تسعى من خلال هذه الحرب الإجرامية لتحقيقها: مؤكداً أنها تسعى في الأصل لشطب المقاومة.. وخلق مفاوضات يوقع على المطالب الإسرائيلية بشيك على بياض من خلال تدمير وحصار وتجويع وإذلال وتركيع شعب، ومذبحة غزة هي حلقة في هذه السلسلة الجهنمية.. وما يواجهه الشعب الفلسطيني هو جريمة حرب بكل مقياس، وجريمة ضد الإنسانية، في ظل تواطؤ عربي ودولي.. جريمة قررتها تل أبيب وتواطأت عليها الأنظمة العربية<sup>(٥٠)</sup>.

ففي واقع الأمر فإن الإسرائيليين لا يتفاوضون حين يتفاوضون، ولا يحاربون حين يحاربون: إنهم يضيعون الوقت ويشغلون الرأي العام بالمفاوضات تارة وبالحروب تارة للتغطية على مواصلة سرقة الأرض، على أمل فرض الأمر الواقع والحصول على أوسع حدود ممكنة عندما يأتي يوم يُجبرون فيه على عقد اتفاق نهائي. في هذا السياق، يمكن أن نفهم المواظبة الإسرائيلية، من خلال عملائها حتى في داخل الأجهزة الفلسطينية، على سكب الزيت على نار الخلافات الداخلية الفلسطينية لإطالة أمدها، فكل إطالة في زمن الجمود تعني تقدماً أكثر في التوسع الاستيطاني<sup>(٥١)</sup>.

إلا أن هناك من يرى أن إسرائيل لن تنجح في تحقيق الأهداف التي سعت إليها، «فالأهداف النهائي لكل حرب هو كسر إرادة المقاومة وتدمير قدرات العدو.. وإجباره على الخضوع..» ولذلك أقول مقدماً إن العدوان الإسرائيلي الإجرامي، جواً وبحراً وبراً، على غزة. وبصرف النظر عن نتائجه السياسية والعسكرية المباشرة، سوف يفشل في تحقيق هدفه الاستراتيجي، في كسر إرادة الشعب الفلسطيني، وقدرته على تجديد المقاومة، بكل أشكالها الغنية المتنوعة، مهما حقق هذا العدوان من مكاسب تكتيكية. والحرب هي مفاوضات بالسلاح، أو انتقال المفاوضات من الوسطاء والطاولات إلى ميادين القتال.. ليحقق العسكر ما عجز عنه المفاوضون<sup>(٥٢)</sup>.

### ز- الخطاب حول نتائج العدوان الإسرائيلي على غزة:

تباينت ردود الفعل في العالم العربي حول: من المنتصر في هذه الحرب؟ مما يؤكد استمرار صراع الخطابات حتى في أمور قابلة للقياس. لم يتمكن أي طرف من أن يحسم الصراع لصالحه، وهو الأمر نفسه الذي حدث عقب انتهاء العدوان الإسرائيلي على لبنان صيف ٢٠٠٦، فقد تسابقت الخطابات على إبراز أن الطرف الذي تناصره قد انتصر والطرف الآخر

ورداً على اختراق حماس للهدنة يرى البعض أن هذه الحرب قائمة سواء بإلغاء حماس الهدنة أو تجديدها، ولكن الفارق فقط في السرعة في القضاء على الفلسطينيين. ومن هنا وجبت المقاومة التي تعمل على إحياء الروح والحفاظ على القضية «إن ما نشهده اليوم هو البطولة المتاحة أمام غزة، وهي بطولة غالية الثمن، لكنها بطولة: لأنها تقام على التضحيات الكبيرة الأليمة، ولأن الدماء فيها تقف عارية أمام الحديد والفولاذ، وتنتصر»<sup>(٤١)</sup>، «وهذا يعني أن المقاومة ما زالت صامدة ولم ترفع الراية البيضاء»<sup>(٤٢)</sup>.

في حين عبّر البعض عن ثقته في المقاومة بالقول بأن المقاومة ستنتصر بقيادة حماس ومعها بقية قوى المقاومة الفلسطينية الباسلة بثباتها الأسطوري في ميادين الحكم والإدارة المدنية، وفي الميدان السياسي، وفي الميدان العسكري في مواجهة العدوان الصهيوني الهمجي، رغم الحصار والتجويع والترهيب<sup>(٤٣)</sup>.

كما أكد البعض أنه رغم الخلاف مع حماس إلا أن العدو هو إسرائيل «لذلك تظل حماس المقاومة خصماً سياسياً وإسرائيل هي العدو الصهيوني الغاصب المحتل الذي يجب أن تتوارى أمامه كل الخلافات والخصومات السياسية بين أبناء الشعب الواحد، هذه هي الحقيقة الثابتة التي يجب أن تكون جلية وواضحة وضوح الشمس عند أي كلام عن الحرب الوضيعة التي تشنها إسرائيل في غزة الآن»<sup>(٤٤)</sup>.

### و- الخطاب المهاجم لإسرائيل:

رغم التركيز على الهجوم على إسرائيل ووصف ما قامت به بأنه همجية ووحشية وجرائم حرب؛ وأن الحرب على غزة كانت بمثابة عدوان على شعب أعزل، مارست فيه إسرائيل كل أشكال المحرمات وجرائم الحرب<sup>(٤٥)</sup> ووصفه البعض الآخر بالعدوان الإسرائيلي الإجرامي ضد شعب غزة<sup>(٤٦)</sup>، أو المجزرة الإسرائيلية الحالية<sup>(٤٧)</sup>، والجريمة النكراء<sup>(٤٨)</sup> التي ارتكبتها إسرائيل في وضح النهار يوم السبت ٢٧ من ديسمبر، إلا أن ذلك جاء في إطار النقد للأطراف العربية بما فيها الحديث عن النظام العربي بشكل كامل أو مصر والأطراف الفلسطينية بشكل أكثر خصوصية.

كما هاجم البعض الصهيونية مؤكداً ضرورة توضيح أن الصهيونية هي بطبيعتها أيديولوجيا مولدة للعنف؛ لأنها تقوم على عقيدة التفوق والاستعلاء، وأنها لا تمارس فقط عنفاً إجرامياً لا يتوقف ضد الشعب الفلسطيني، بل هي أيضاً تعمل على إفساد التطور السياسي لعدد كبير جداً من شعوب العالم اعتماداً على قدراتها الخاصة وعلى نفوذها الطاغية في الداخل الأمريكي<sup>(٤٩)</sup>.



والأشقاء الأكبر للأطفال الذين مروا بتجربة الحرب الأخيرة على غزة. ويأتي الملمح الثالث وهو «الاحتراف» الذي يدفع إليه الشعور الدائم بقرب الخطر منه، وتكرار وقوعه. ويتيح الانتماء للتنظيمات والجماعات المسلحة فرصة الاحتراف التي تنزع إليها نفسية الشاب الذي مر في طفولته بخبرة القتل، ورؤية دماء محبيه مراقبة. وينتظر اللحظة المناسبة لتفريغ شحنة الغضب المختزن ضد «الغريم» المتمثل في الاحتلال الإسرائيلي.

هذه أهم ملامح الجيل الرابع للمقاومة الفلسطينية القادمة من منظور التحليل النفسي/السياسي. وهي ملامح ستكون مضافة -وليست بديلة- ملامح المقاومة الباسلة التي لم تستسلم للعدوان، وصمدت في مواجهة رابع أكبر جيش في العالم أربعة أضعاف المدة التي صمدتها الجيوش العربية في عدوان سنة ١٩٦٧<sup>(٥٦)</sup>.

## ٢- رفض انتصار حماس:

يرى البعض أن الحديث عن انتصار المقاومة تعبير «فج عن خلل جسيم في العقل السياسي العربي، أو عن عادة عربية سيئة. لا نشير هنا فقط إلى إفساد اللغة، حيث نتحدث عن نصر لم يحدث، والحديث عن «نصر» في مواجهة آلة حرب تتمتع بهذه القوة العاتية يعني أننا نصور قدراتنا بأكثر كثيراً مما هي عليه، وأن نضطر لصنع حكايات وأساطير يتناقض بعضها مع طبيعة هذه الحرب غير المتكافئة، والتي تقترب من عمليات العقاب الجماعي عن الحروب بمفهومها المعروف. وأخيراً، فدائماً ما يكون الهدف من الاحتفالات المبكرة بـ«النصر» هو تبرير العودة للأمر الواقع خاصة إذا قام على الأفراد بالسلطة. وإذا فعلت حماس ذلك فهي في الواقع تتبني أجندة مناقضة تماماً لما يجب أن تتبناه بعد نهاية العدوان الإجرامي الإسرائيلي على غزة<sup>(٥٧)</sup>. كيف يمكن الحديث عن انتصار حماس إذا كان من بين النتائج مزيد من الانقسام العربي والفلسطيني، والتشكيك في شرعية منظمة التحرير وإرسال سفن حلف الناتو إلى شواطئنا، ونشر قوات دولية أو مراقبين دوليين؟... ومع ذلك هناك من يحتفل بالنصر<sup>(٥٨)</sup>.

وفى الاتجاه نفسه، يأتي الرأي القائل: «رغم الخراب والدمار تخرج علينا حركة حماس تزف لنا النصر والبشرى. هنيئاً لكم انتصاركم يا قادة حماس، ولا عزاء لأهل غزة المنكوبة. فهل تجدي هذه القراءة في إعادة توجيه البوصلة؟»<sup>(٥٩)</sup>.

فالمنتصر الوحيد في العدوان الصهيوني الأخير على غزة - لدى الراضين لانتصار حماس- هم المعتدون، «أمامنا شوطاً طويلاً حتى نجرو على القول إن المقاومة الفلسطينية حققت بوادر انتصار، فالمعركة ستظل قائمة إلى أن تفرز شعوبنا مقاومين يتصدرون الصفوف وأعينهم علي استرداد الحق، لا على الاستيلاء على السلطة، ولا ينفذون إلا أجندة شعوبهم وحدها

الذي تعاديه قد انهزم، وهناك خطاب ثالث يرى أن الطرفين انهزما، وفيما يلي نشير إلى هذه الخطابات.

## ١- حماس هي التي انتصرت:

وبعد أن خرجت هذه المقاومة من محنة العدوان على غزة الأخيرة أصلب عوداً، وأشد إصراراً على النضال، وأكثر شعبية محلياً وعربياً ودولياً.. وكذلك بعد أن قويت روابطها الإقليمية والدولية؛ إلى الحد الذي استلزم استنفار حلف الأطلسي للوقوف إلى جانب الاحتلال لإحكام الحصار على غزة خشية استئثار المقاومة ترميم قدراتها العسكرية<sup>(٥٣)</sup>.. نستطيع التأكد بما قرأناه في واقع الحال، من أن إسرائيل لم تنجح في تحقيق هدف واحد مما كانت ترمي إليه من حربها في غزة. فلا حماس انتهت، ولا الشعب الفلسطيني كرهها وثار عليها، ولا انكسرت شوكتها، ولم تنكسر شوكة المقاومة وروح الصمود والتحدي في نفوس أهل غزة. بل إن الذي تحقق في الواقع هو المزيد من روح المقاومة والرغبة الملحة في الانتقام وطلب الشهادة، والمزيد من الإيمان الراسخ بعقيدة الجهاد ومواصلة النضال ضد العدو مهما تكلف ذلك من تضحيات<sup>(٥٤)</sup>.

ويرى هذا التيار أن الهزيمة لم تلحق بالعدو فقط ولكن بأنظمة الاعتدال العربي، فقد ترتب على ما حدث هزيمة جيش العدو في أهدافه من تلك الحرب الإجرامية وكذلك هزيمة النظام المصري وما يسمى «أنظمة الاعتدال العربي» مما دفعها إلى تغيير نبرة خطابها -ليس أكثر- تحت تأثير انتفاضة الشعوب العربية. كما وجهت ضربات قوية لخط أوصلو ورجالاته ولجمل سياسات الإمبريالية الأمريكية والأوروبية الهادفة إلى تصفية قوى المقاومة والقضية الفلسطينية على مدى العقود الثلاثة الأخيرة<sup>(٥٥)</sup>.

بل إن هناك من يرى أن النصر لم يتوقف على ما حققته حماس في الوقت الراهن، ولكن للنصر رؤية مستقبلية أخرى تتمثل في الجيل الرابع للمقاومة الذي تتشكل ملامحه الأولى هذه الأيام من تحت ركام الدمار ومن وسط بحور الدماء التي أراققتها آلة الموت الإسرائيلية. أول ملامح هذا الجيل ستتمثل في عمق النزعة الإيمانية في نفوس أبنائه، وهم أطفال اليوم الذين روّعتهم مشاهد القتل والدماء الغزيرة، بلا أدنى جريرة، الأطفال الذين أزهقت براءتهم.

الملمح الثاني لهذا الجيل سيتمثل في الرغبة الشديدة في الانتقام عبر الانضمام لعمل جماعي، بدرجة أكثر تركيزاً مما هي عليه الآن في تنظيمات محكمة كحركة حماس، أو الجهاد الإسلامي، وذلك للتعويض عن الشعور بالعجز المختزن من عهد الطفولة، وعدم القدرة على حماية الأحباء والأقارب الذين استشهدوا أمام عينيهم أيام طفولة الشباب، أي في وقت كان ينظر إليهم كمصادر لقوته وملأه الأمان. وهم هنا الآباء والأمهات

## اعتبر البعض أن هذه المعركة تؤرخ لسقوط النظام العربي

حماس سياسي بالدرجة الأولى؛ لأنها وقعت في الفخ الإسرائيلي بإظهارها الصراع على أنه صراع ديني، لتبرر وجودها كدولة دينية<sup>(٦٢)</sup>.

أما الخاسر الأكبر -في رأي البعض- في تلك الحرب وهي فلسطين. فقد غاب اسمها من المسرح، وانزوى علمها بعيداً ليفسح مكانة لأعلام ملونة حزبية. خسر الفلسطينيون وحدتهم الوطنية، فخسرت قضيتهم رغم احتفالات نصر وأفراح صاخبة قد أقيمت على تلال من جثث الشهداء<sup>(٦٣)</sup>.

### ثانياً: حرب الخطابات:

#### أ - الحديث عن وجود المحاور:

من الأهمية بمكان القول بأن الخطاب حول صراع المحاور تميز بالتنوع الشديد بين من يرى أن هناك صراعاً بين المحاور (محور الاعتدال ومحور المقاومة)، وبين من يرى أنه لا يوجد مثل هذا الصراع.

وبخصوص الخطاب الذي يرى أنه لا يوجد هناك ما يسمى بصراع المحاور؛ فإنه يشير إلى أن «العالم العربي الرسمي جميعاً يدين بالعجز وأنه لا يوجد ما يسمى بمحور الاعتدال أو المقاومة، ولكن في حقيقة الأمر هما متفقان، فالدولة التي تقود محور الممانعة في الوقت الراهن تربطها علاقة وثيقة بالعدو الصهيوني ولم تجرؤ على قطعها، وتفتح أراضيها لأنشطة إسرائيلية عديدة، كما تفتحها لتسهيلات عسكرية للولايات المتحدة الأمريكية»<sup>(٦٤)</sup>.

كما يشير آخر إلى أن «ثمة صدق مفقود في كلا المعسكرين. منظر أمير قطر أو وزير خارجيته لا يوحي بالثقة، فقط يوحي بالمخاتلة والخداع، مشهد أبو الغيط ومبارك يبعث على الخجل، حتى مشهد المقاومة في غزة لا يشي بأكثر من إمكانية هائلة للمقاومة، لكنها مُهدرة»<sup>(٦٥)</sup>.

كما أن الصراع بين المحورين هو صراع وهمي ولا يدور إلا عبر القنوات الإعلامية «حيث يحاول كل واحد منهما عبر هذه القنوات أن يكون الأعلى صوتاً ويحاول أيضاً كسب الشارع العربي والإسلامي، وجاء العدوان على غزة ليعطي كلا منهما فرصة لإثبات قدرته على التأثير. هذان المحوران لا يصدق عليهما ما درج الإعلام على توصيفهما به بأنهما محورا الاعتدال والممانعة. وربما يصدق على الأول وصفه بمعسكر الاعتدال نظراً لاستراتيجية أطرافه المبنية على خيار التسوية السلمية كخيار أساسي لتسوية الصراع العربي الإسرائيلي وعلى خيار الركون إلى ربط مصالحه بمصالح الولايات المتحدة

من دون صفقات تحقق أغراض الآخرين. وشواهد هزيمتنا - جميعاً- ماثلة للأذهان، فمن آلاف الشهداء والمصابين، إلى تأخير أمد التحرير بسبب ضياع البوصلة وصرف الأنظار عن المعتدي الذي كان من المفترض أن تتوحد الجهود لبحث سبل مواجهته وإجباره على احترام الحق. فبدلاً من ذلك انصرف القوم إلى تبادل الاتهامات واللعنات»<sup>(٦٥)</sup>.

ويذكر أحد الرافضين لمقولة انتصار حماس «الآن نستطيع أن نقول بكل ألم إن هذه الحرب الإجرامية الأخيرة لم ينتصر فيها سوى الصهاينة، ومن يقل غير ذلك يكن -عذراً- إما مكابراً وإما سانحاً. أعداؤنا نجحوا تماماً في استثمار خيباتنا - جميعاً- في طريق تحقيق أهدافهم. هم ليسوا أصحاب حق، ولا أصحاب جيش لا يُقهر؛ وما حققوه من مكاسب -حتى الآن- لم يكن نكاه منهم أو براعة أو حتى قوة، فهم لم يفعلوا طوال تاريخهم سوى استغلال عجز قادتنا وتهافتهم وفسادهم. وإن كان في المسألة التي استمرت أكثر من ثلاثة أسابيع بقعة ضوء، فليست سوى صمود المواطن الفلسطيني، وإن كان ثمة طرف آخر يمكن أن يُحسب له شبه انتصار، فلن يكون سوى الشعب الفلسطيني نفسه، أو -بالأحرى- المرابطين في أرضهم، المُصرين على تحريرها؛ ليس هؤلاء الذين انغمسوا في صراعات على سلطة تحت ظل الاحتلال الفعلي، ولا من يعيشون حياة بذخ المليونيرات في الخارج ولا يتذكرون الوطن إلا في معرض المزايدة على الآخرين، ولا أولئك الذين يؤثرون السلامة ويتطلعون للفرار من الوطن بدلاً من الاستشهاد على أرضه. أما بقية الأطراف، من متواطئ ومتفرج ومُزايد فقد نجح الصهاينة في فضحهم، ولم يعد بمقدورهم استعادة أي نوع من المصداقية؛ لا عبر مؤتمر قمة أو مؤتمر دولي أو حتى عبر تبرعات ليست من جيوبهم يحاولون بها شراء مواقف. نجح الأعداء في تسليط الضوء على عمق الخلافات بين الأطراف الفلسطينية وأظهروا للعالم صعوبة إيجاد طرف للتحدث باسم الشعب الفلسطيني، بعدما نجح الصراع على السلطة في حرف اتجاه البندقية الفلسطينية فاتجهت لصدر فلسطيني، وتبادل الجميع اتهامات التخوين والعمالة. كما نجحوا في كشف تهافت الموقف العربي»<sup>(٦٦)</sup>.

#### ٣- لم ينتصر أحد:

يؤكد أصحاب هذا الرأي أن «إسرائيل خسرت لأنها لم تحقق أهدافها بالقضاء على حركة حماس وصواريخ المقاومة، حتى وإن كانت قد أضعفت الحركة، رغم ما يمتلكه الجيش الإسرائيلي من قدرات، وكما انهزمت إسرائيل، انهزمت حماس، رغم النجاح الضعيف للغاية، والذي مرده إلى حركات المقاومة التي حاربت بشجاعة: سرايا القدس والقسام وألوية الناصر صلاح الدين والجبهة الوطنية وكتيبة أبو علي مصطفى. وانهزم

والمصري-السعودي في تنافس للإمساك بورقة المعبر. ما زال الصراع بينهما محتدماً، ليس في غزة فقط، بل في لبنان أيضاً. في الوقت نفسه تلعب «قطر» دوراً خاصاً لحساب طموحها أمام السعودية»<sup>(٦٩)</sup>.

كما أن البعض يعترف بوجود هذه المحاور ولكن ينتقدها؛ لما تخلقه من انقسامات «لذا فالانقسام هو الأساس.. هل أنت مع السلطة أم مع حماس؟.. هل تدين مصر وتتهمها أم أنت معها؟.. ما الذي تسعى إليه إيران؟ وما دور سوريا في الهجوم على مصر؟.. هل كانت هناك مؤامرة على مصر بدأت بمظاهرات دمشق وانتهت بخطاب نصرالله؟!.. لم تفعل بمظاهرات دمشق وانتهت بخطاب نصرالله؟!.. لم تفعل صواريخ القسام شيئاً ولن تفعل المظاهرات الغاضبة شيئاً، لم يبق لنا سوى الحزن والغضب وتبادل الاتهامات، أما العمل فقد تركناه لإسرائيل»<sup>(٧٠)</sup>.

### حماس وخطورة التورط في لعبة المحاور العربية

كما حذر البعض حماس من التورط في صراع المحاور العربية، أو أن يكون سلاحها وقوداً لتسويات تتحقق ضد مصالحها. ومن هنا فإن استقلال المقاومة عن المحاور، شرط ضروري لانتصارها البعيد، ودونه قد يكون المقاتلون، الذين خاضوا المعارك واشتبكوا بالسلاح، أول ضحايا التسويات الإقليمية. وفي المدى القريب فإن النتيجة المتوقعة من أفضل تسوية تحققها أطراف الممانعة، بالاعتماد على معارك المقاومة اللبنانية والفلسطينية والعراقية، هي خلق أوضاع في المنطقة تشبه الأوضاع في مصر بعد حرب أكتوبر. من هنا فإن حسابات المقاومة ينبغي ألا تنجر إلى قرارات استراتيجية قد تضرها وتفقد غيرها، وأن تهتم بالشعب؛ فهو خط دفاعها الحصين، وبمؤسساته الديمقراطية وتحريره من وضع المتفرج والضحية للمفاوضات والصواريخ.. لتعزز قدرته على المقاومة الشاملة بكل أسلحتها، وليس للمقاومة سلاح أهم من الوحدة الوطنية التي تقتضي من كل الأطراف أن تتنازل لبعضها، فهي أولى من إسرائيل!<sup>(٧١)</sup>.

### ب - نماذج من صراع المحاور:

#### ١ - الهجوم على مصر في صراع المحاور:

لم يكن الهجوم على محور الاعتدال من الخارج المصري فقط، فهناك من خطابات الداخل ما هاجمت التخائل المصري ومسئوليته عما يحدث في فلسطين، بل ونظر بعضها إلى الهجوم من محور الاعتدال على أنه أمر طبيعي في إطار أنه من مواطن عربي. إلا أن الرؤية الغالبة على هذا التيار هي التعويل على الموقف المصري بغض النظر عن الأطراف الأخرى. وبرر هذا التيار موقفه بقوله «إن نقد السلوك المصري الرسمي في قضية الحرب على غزة لأنه جاء بأقل من المكانة الدولية لمصر

الأمريكية بدءاً بالقبول بالتعايش مع إسرائيل والتعاون معها اقتصادياً وأحياناً سياسياً وانتهاء بالحرب على الإرهاب. غير أنه لا يصدق على المعسكر الآخر الذي بدت فيه قطر العنصر الأعلى صوتاً مؤخراً، الوصف بمعسكر الممانعة وإنما وصفه بمحور التمتع. فقطر التي بدأ قائدها وهو يتحدث عن إنقاذ غزة وعن عقد القمم لحمايتها وحماية مقاومتها من متآمرين يحيطون بها أشبه بأكثر رجال العالم ثورية، فيما كانت القنابل الفسفورية المحرمة تتدفق على إسرائيل من مخازن قاعدة العديد في قطر وهي القاعدة الأمريكية الأكبر خارج الولايات المتحدة، دون أن يرفع أمير قطر إصبعه أو يومئ حتى بعينه بأي علامة للرفض أو الاستنكار»<sup>(٦٦)</sup>.

بل إن البعض يشكك في وجود مثل هذه المحاور من الأصل بالقول بأن «إن السباق حول القمم الذي نشهده اليوم يكشف عن مدى الانحطاط الذي وصل إليه النظام العربي. فالمشهد كاد يتحول إلى سيرك حقيقي أو إلى تمثيلية رديئة مما يصنعه الأطفال عندما يتخاصمون ويتصالحون إرجاءً للوقت. وتتم هذه التمثيلية السخيفة في وقت يفقد فيه مئات من أطفال غزة أرواحهم أو أجزاء من أجسامهم، وتتعمد إسرائيل إهانة العرب بعروضها العسكرية المجرمة في الأرض والسماء»<sup>(٦٧)</sup>.

وقد ثبت أن وجهة النظر هذه جديرة بالاحترام والتقدير؛ ففي الوقت الذي تستعر فيه الخلافات العربية وخصوصاً بين قطر ومصر تشهد أروقة الأمم المتحدة تحالف مصر وقطر داعمين للجزائر في طلبها نزع الصفة الاستشارية عن اللجنة العربية لحقوق الإنسان، وأن القضية التي تذرعت بها الدول الشاكية في وضع طلبها المعني هي اتهامها لممثل اللجنة العربية في دورة جنيف الأخيرة بأنه كان إرهابياً خطيراً، والواقع أنه محام ومناضل جزائري لحقوق الإنسان حاصل على حق اللجوء السياسي في سويسرا، ويتعرض باستمرار لتحرشات من قبل مندوبية الجزائر في المجلس الاقتصادي والاجتماعي التابع للأمم المتحدة. ويزيد من حدة الاستغراب أنه فيما رفضت الولايات المتحدة الأمريكية هذا المنطق وطلب الاتحاد الأوروبي تفسيرات إضافية للتصويت على ذلك الطلب، تفضلت دولة إسرائيل بدعم الدول الأربع إياها في إجازة القرار المترتب عنه»<sup>(٦٨)</sup>.

إلا أن هناك من تحدث عن وجود مثل هذه المحاور، مؤكداً أن قطر التي تثير كل هذا التداخل ليست من بين المحاور ولكنها تلعب دوراً لحسابها الخاص في مواجهة السعودية، ولكن محور المقاومة يتكون من إيران وسوريا وحماس وحزب الله، في مواجهة محور الاعتدال الذي يتكون من مصر والسعودية والأردن والسلطة الفلسطينية، وأن الصراع بينهما يتجسد في فلسطين ولبنان «بدا المحور السوري-الإيراني،

## تباينت ردود الفعل في العالم العربي حول من المنتصر في هذه الحرب؟ مما يؤكد على استمرار صراع الخطابات حتى في أمور قابلة للقياس

في حين أن البعض يرى أن هناك شرعية فيما يقوله حسن نصر الله «إن كنا نؤمن بالفعل بأننا أمة واحدة ووطن واحد فلن نجد صعوبة في فهم دوافع حسن نصرالله حين يطالبنا بالثورة ضد النظام»<sup>(٧٤)</sup>.

كما انتقد البعض ما تقوم به الحكومة المصرية عبر إعلامها الرسمي من خلال تصوير الأمر وكأن هناك حرباً على مصر. إنها «الحرب على مصر» كما أخبرنا مانشيت جريدة (روزاليوسف) بتاريخ ٢٠٠٨/١٢/٣٠ وللغافلين الذين لا يدركون ما هي الحرب التي تشن على مصر، أو قد يذهب بهم الظن إلى أن إسرائيل من فرط خشيتها من الدور المصري المساند للقضية الفلسطينية قررت أن تبادر بضربة استباقية، أقول لهؤلاء: أفيقوا من غفلتكم، فالحرب التي تُشن على مصر كما تخبرنا (روزاليوسف) هي تلك التي تشنها حماس وحلفاؤها علينا<sup>(٧٥)</sup>.

### ٢. الدفاع عن مصر في صراع المحاور:

إلا أن هناك من دافع عن النظام المصري واتهم مباشرة الأطراف الأخرى بأنها وراء تحريك العديد من الأعمال الدعائية حتى قبل العدوان الإسرائيلي على غزة «عموما بدأت الحملة على مصر والتي وصلت إلى درجة مهاجمة السفارات المصرية في بيروت والخرطوم وعدن ونواكشوط ودمشق. وجرى حرق العلم المصري في اليمن، ووجه حسن نصر الله زعيم حزب الله خطاباً إلى الشعب المصري مطالباً إياه بالخروج لفتح المعبر ومطالباً القوات المسلحة بالخروج على النظام. وهكذا بدأت مأساة العرب واضحة، مأساة تعكس طبيعة العقل العربي العاجز عن الفعل الإيجابي، والذي يناضل من خلف الميكروفونات، ويتناول على دولة بحجم مصر. والمأساة الأكبر أنه كان لهذه الحملة ولعملية الإثارة والتهيج أنصار ودرائش في مصر، فخرجت مظاهرات ومسيرات تهاجم القيادة المصرية، فإذا كان طبيعياً أن تخرج المظاهرات منددة بالعدوان الإسرائيلي، ومطالبة بوقف هذا العدوان ومحكمة القتلة من المجرمين الإسرائيليين، إلا أنه من غير المنطقي أن يخرج مصريون يرددون شعارات بدأت في طهران وانتقلت إلى دمشق ثم إلى عدد من العواصم العربية التي لا يجيد قاداتها سوى النضال خلف الميكروفونات والتناول على مصر، وقد انعكس ذلك سريعاً على الاجتماع الوزاري للجامعة العربية فخرج منقسماً وكان اجتماعه بمثابة رسالة إلى إسرائيل بأن تواصل

وبأصغر من عمقها الحضاري لا يعني -بالضرورة- لوم مصر كونها لم تستخدم قدراتها ومواردها المادية في هذه المواجهة لتحافظ على مكانتها وتزدود عن دورها الإقليمي؛ إذ السلوك بقدر «المكانة» لا يعني التصرف بقدر الإمكانيات، ولا يقتضي بالضرورة استخدام كل الموارد أو القدرات العسكرية مثلاً. عيب السلوك الدولي بحجم مكانة الدولة يقع أغلبه على دبلوماسيتها وطاقمها السياسي الحاكم أكثر مما يقع على جيشها أو قيادتها العسكرية، بشرط أن تتوافر لدى دبلوماسيتها والطاقم السياسي رؤية استراتيجية لكيفية صيانة أمنها وهيبتها الدولية. أما إذا غابت هذه الرؤية -كما هو حادث فعلاً- فإن النتيجة هي التفريط في المكانة والمس بالكبرياء الوطني، وفي هذه الحالة يصعب جداً الدفاع عنهما عبر تبرير السلوك المتخاذل، أو شرعنة التفريط في الدور والتقصير في أداء الواجب بحجة وجود مغرضين أو متطاولين على مصر الكبيرة. ولا يساوي تهافت خطاب المزايدة على مصر سوى تهافت موقف الحكومة المصرية الحالية في محنة غزة الراهنة، وتدني أداء الدبلوماسية المصرية، ليس فقط لوقف الحرب الإجرامية التي تشنها إسرائيل، وإنما لمحاصرة التهديد الذي يتعرض له الأمن القومي المصري من جراء هذه الحرب غير الأخلاقية التي تشنها إسرائيل على حدودنا الشرقية ضد غزة ومقاومتها الباسلة. مجمل السلوك المصري تجاه الحرب الإسرائيلية العدوانية على غزة يقول بوضوح إن مصر تتصرف بأقل وأصغر من مكانتها الدولية. سلوك المسئولين الرسميين في هذه المحنة يجلب الصغار لمصر، ولا يعبر عن عمقها الحضاري الذي لا يتوافر لأغلبية البلدان المحيطة بها -ناهيك عن افتقار الدول التي تجرأت على مكانة مصر لمثل هذا العمق أصلاً- كما لا ينسجم هذا السلوك مع سمعة مصر كدولة مركزية في النظام الإقليمي العربي، يجب أن تتحمل ما لا يتحمله غيرها من الدول الهامشية الصغيرة<sup>(٧٦)</sup>.

إلا أن البعض كان صريحاً في أن النظام الحالي يستحق ما يتعرض له من هجوم «ولن أجعل رؤيتي السياسية تعوقني عن رؤية الحقيقة.. لن ينسيني نقد الآخرين لي الوقائع التي جرت على الأرض، ولن أنسى أبداً أن الهجوم الموجه للنظام المصري هو جلاء ما فعله ويفعله فينا وفي غيرنا.. ولن أنسى كذلك أن مصر ليست حكماها.. ولن أنسى أنهم حولوا بلادي إلى بوابة للأخرة عندما أغلقوا الحدود في وجه إخوة لنا، وشاركوا في حصارهم ثم تجاهلوا القانون الدولي الإنساني الذي يقضي بنجدة الفارين واستيعابهم باعتبارهم لاجئي حرب وأصروا على حبسهم داخل أراضيهم، بينما أطنان القنابل والصواريخ تنهال عليهم.. نسوا التجارب الإنسانية وكيف تفتح البلاد حدودها للفرارين في مثل هذه الظروف»<sup>(٧٧)</sup>.

## بعد أن يطمئن العدو إلى تمكنه في الأرض وتغلبه في معركة السلاح ينقل الصراع إلى ساحات المعاني والمفاهيم

الوضع الراهن وهو ما فعله وليد سيف في مقالة مهمة له<sup>(٧٩)</sup>، أعاد مرة أخرى الحديث عن الصراع بأنه صراع على المعاني، وأنه صراع وجود، فخلال ستين عاماً.. ولم يتحقق حلم التحرير والعودة، ولم تتحقق بعدُ حزمة الأحلام العربية الأخرى التي تحيط به وتتشابك وتتشارط معه -الوحدة والتحرير والنهضة والعدالة والديمقراطية بوجهيها الاجتماعي والسياسي. ولكن الأخطر من عدم تحقق الأحلام في الواقع هو المحاولات المنظمة لمصادرة الأحلام نفسها، وإعادة تعريفها لتعني «الأوهام» غير القابلة للتحقق أصلاً بحكم طبيعتها الجوهرية. بل الذهاب أبعد من ذلك إلى إسقاط المسوغات الأخلاقية والتاريخية لتلك الأحلام/الأوهام. فهي -حسب هذا الخطاب- ليست مرفوضة فقط بمعيار الضرورة التي تجعلها غير قابلة للتحقيق، ولكنها مرفوضة بالمعايير المبدئية والعقدية. وإن لم يكن هذا كافياً، جرى تحميلها مسؤولية النكبات والخيبات والانكسارات والانحطاط والعجز عن اللحاق بركب الحضارة العالمية. فبدلاً من أن تكون تلك الأحلام مشاريع استجابة حضارية للتحديات التي تستهدف وجود الأمة وهويتها، تصبح بهذا المنطق أساس المشكلة وأصل النكبات.

هكذا إذن بعد أن يطمئن العدو إلى تمكنه في الأرض، وتغلبه في معركة السلاح، ينقل الصراع إلى ساحات المعاني والمفاهيم، ليستكمل غزو الأرض واغتصاب الوطن بغزو العقول واغتصاب الأحلام وفرض خطابه ومعانيه وروايته. وهذه المرة يتطوع النظام العربي نفسه -بعضه أو كله- وتيارات سياسية عربية تصف نفسها بالليبرالية، لتنهض بالمهمة. ذلك لأن نظام المعاني التحررية لا يواجه الرواية الصهيونية إلا بقدر ما يجرح النظام العربي ويتحدى تيارات الإذعان والخضوع التي تتقنع بدعاوى الاعتدال والواقعية والعقلانية، فضلاً عن الليبرالية.

ويستكمل هذا الطرح الدكتور سيف الدين عبد الفتاح بالحديث في مقال له<sup>(٨٠)</sup>، بقوله: إن المفاهيم هي أهم أعمدة بنيان الهوية وأنساقها وعقلها الجمعي، ومدار الرحي في أي أمة؛ ذلك أن المفاهيم إذا ما عرفنا المقام الذي يتعلق بها وجب علينا أن نؤسس علمًا لها يهتم ببناء وعي الأمة حتى لا تنطلي عليهم الكلمات الخبيثة طاردة لأصول الكلمات الطيبات، غزة العزة بين قاموسين ومشروعين: قاموس المقاومة والمنعة وقاموس التخذيل والإرجاف في زمن الروبوتية، حيث تعيش الأمة ضمن عالم أحداثها لحظات كاشفة، إلا أن هذه اللحظات الكاشفة لا يمكن أن تؤتي أكلها في التأثير في الأمة إلا أن تتحول كاشفيتها

العدوان بحرية تامة فالعرب غارقون في خلافاتهم وصراعاتهم وتخوين بعضهم البعض. فالعقل السياسي العربي عاجز عن الفعل الإيجابي، ويجيد الوقوع أسيراً لنظرية المؤامرة<sup>(٧٦)</sup>.

كما هاجم البعض حماساً مؤكداً أنها تعمل كرأس حربة لجبهة إسلامية سقطت في أول امتحان، أوحث الجبهة الإسلامية لحزب الله بالقيام بعملية استفزازية أعقبها إطلاق صواريخ، ثم معركة عسكرية نتج عنها تحطيم إمكانيات الدولة اللبنانية.. أوحث الجبهة نفسها لحماس -في منتصف شهر ديسمبر الماضي- برفض تمديد هدنتها مع إسرائيل والتهديد بقتل العشرات من جنود الاحتلال، إذا ما فكروا في إعادة احتلال القطاع، مع الوعد بنقل عمليات المقاومة إلى داخلها وتكبيدها ما لا تطيق ولا تتحمل من العنف.. وقد اتخذت هذه الجبهة العديد من الإجراءات في هذا السياق، منها: التنسيق مع عدد من وسائل الإعلام من ناحية، وبعض التيارات الدينية المتعاطفة معها من ناحية ثانية لمساندة تحرك حماس النضالي، الأولي بمهاجمة دول الاعتدال وعلى رأسها مصر، والثانية بالتظاهر ضد مقار هذه الدول الدبلوماسية في عدد من العواصم العربية. لم تفرق وسائل الإعلام بين مآزق حماس السياسي بعد رفض تمديد الهدنة وبين السعي حثيثاً لإحراج نظم حكم عربية بادعاءات غير منطقية والترويج في الوقت نفسه للجبهة الإسلامية، التي تملك رؤية كان أقصى طموحاتها أن يدمر صاروخ قسام واحد هدفاً في الجنوب الإسرائيلي يتحدث عنه العالم (!)، ولم تحقق المظاهرات هدف قلب أنظمة حكم عربية ولا حركت المقالات والخطب الرنانة الجيوش العربية لكي تثور على حكوماتها<sup>(٧٧)</sup>.

وكانت هناك انتقادات صريحة لمحور الممانعة «انخفض سقف قمة دول الممانعة التي اجتمعت في الدوحة إلى مستوى «التعليق» و«التجميد» و«الوقف» لكن هل سمعنا عن استراتيجية مواجهة حقيقية؟ هل سمعنا كلمة في حق أمريكا -لا سمح الله-؟ أو وصفاً لزعماء إسرائيل بأنهم مجرمو حرب؟ أو عن الودائع والأصول والفوائض العربية؟ أو عن سلاح النفط؟ أو عن إغلاق القواعد العسكرية الأمريكية؟ أو عن الوحدة الوطنية الفلسطينية بدلاً من حكومة غزة؟ وهل سمعنا عن خطة حرب؟ ففيم كانت هذه الضجة إذن التي تؤشر إلى شيء واحد سيحدث في قمة الكويت عنوانه «اتلم المتعوس على خايب الرجا»، أما المتعوس فهو جبهة «المهادنة» التي تنصدها مصر والسعودية، وخايب الرجا هو جبهة «الممانعة» التي تنصدها سوريا وإيران<sup>(٧٨)</sup>.

### خاتمة:

إن ما وصلت إليه الأوضاع العربية وخصوصاً فيما يتعلق بقضيتها الرئيسية (فلسطين) يشير إلى تطورات بنوية خطيرة تستدعي الحديث عن إستراتيجية يمكن من خلالها الخروج من

تلك العقلية الفارقة التي أشرنا إليها، والتي تتولد من العقلية الكاشفة في حال المحنة والأزمة. لا نريد -ونحن على طريق الإصلاح- أن نضلَّ في بدايته أو يُموه علينا في مقصوده، أو ننتلَّه عن جوهر الإصلاح بشكل أجوف أقرب إلى الزُخرف منه إلى الإصلاح الحقيقي: ﴿يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرَفَ الْقَوْلِ غُرُورًا﴾ [الأنعام: ١١٢].

وغاية الأمر في هذا المقام أن نتلمس معنى «المنحة في المحنة»، ونتلمس طريق الخروج من المحنة- الأزمة، ونشرع في صراط الإصلاح الحقيقي المستقيم؛ لا سبله المتفرقة الضالة والزائفة.

وغاية الأمر كذلك ألا نقف عند حدود أفاق الانحطاط الراهن مهما كان تراكمه ووهنه، فلا تتحكم هذه الحدود بنا تفكيراً وتديباً وتغييراً وتأثيراً.

#### الهوامش:

- (١) أمنية طلعت، البديل، ٢٠٠٩/١/٨.
- (٢) مدحت الزاهد، البديل، ٢٠٠٩/١/١١.
- (٣) د. أحمد يوسف أحمد، الصراعات العربية- العربية (١٩٤٥ - ١٩٨١): دراسة استطلاعية، بيروت، مركز دراسات الوحدة العربية، الطبعة الأولى، ١٩٨٨، ص ١١٩.
- (٤) حسنين توفيق إبراهيم، النظم السياسية العربية .. الاتجاهات الحديثة في دراستها، بيروت، مركز دراسات الوحدة العربية، الطبعة الأولى، ٢٠٠٥، ص ٣٢١.
- (٥) حسنين توفيق إبراهيم، النظم السياسية العربية .. الاتجاهات الحديثة في دراستها، مرجع سابق، ص ٣٣٢.
- (٦) إسماعيل صبري مقلد، العلاقات السياسية الدولية: دراسة في الأصول والنظريات، جامعة الكويت، ١٩٧١، ص ١٦٧.
- (٧) د. أحمد يوسف أحمد، الصراعات العربية- العربية (١٩٤٥ - ١٩٨١): دراسة استطلاعية، مرجع سابق، ص ١٨٠.
- (٨) د. أحمد يوسف أحمد، الصراعات العربية - العربية (١٩٤٥ - ١٩٨١): دراسة استطلاعية، مرجع سابق، ص ١٨٩.
- (٩) د. أحمد يوسف أحمد، الصراعات العربية - العربية (١٩٤٥ - ١٩٨١): دراسة استطلاعية، مرجع سابق، ص ٢١٦.
- (١٠) بشير نافع، حماس الطريق إلى الأزمة، وجهات نظر، السنة العاشرة، العدد ١٢٠، يناير ٢٠٠٩، ص ٧، ٨.
- (١١) بشير نافع، حماس الطريق إلى الأزمة، مرجع سابق، ص ٦.
- (١٢) إبراهيم السايح، البديل، ٢٠٠٨/١٢/٣١، أحمد دراج، البديل، ٢٠٠٩/١/٨.
- (١٣) مدحت الزاهد، البديل، ٢٠٠٩/١/٢٣.

(أين المحنة التي تواجه الأمة؟) إلى لحظات فارقة تفرق بين مرحلة مضت وأخرى آتية، نريد للأخيرة -ضمن «فارقة»- أن تتبين وهن أمرها ووهن تفكيرها وتديبها وعناصر تغييرها، وتفرق وتفرز بين إمكانات الأمة في المواجهة والممانعة والمقاومة وبين عناصر واليات تخذيل الأمة ونشر اليأس في أرجائها والترويج للقبول الخانع والاستسلام الفاقع والفاجع. هذه اللحظة الفارقة لا بد أن تتحول -وفق وعي سُنني بحركة التاريخ- لتبحث في الشروط التي تقوم عناصر وهن الأمة، إنها لحظة التقاط العبرة في الخبرة والفكرة، تتحول فيها هذه اللحظة الفارقة إلى لحظة مقومة، نُقوم ما نحن فيه وزناً وتأثيراً، وتقوم ما مر بنا من أنماط واهنة وفاسدة في التفكير والتدبير؛ بحيث تشرع في عمليات «إصلاح» ومنظومة متكاملة واعية للتمكين لشروطه وتفعيل مقوماته.

إن التساؤل الذي يستحق إجابة منا يدور حول: «أين الطريق للخروج من المحنة؟». إنها «المحنة» حينما نقتنص فيها -بوعي وسعي- مقام «المنحة» منها و«العبرة» فيها. في قلب كل محنة تكمن «المنحة» التي تمكّن «للقدرية والإرادة» بالخروج منها ومن عناصر استحكامها، وربما من استمرارها وتحكمها.. هذا الخروج من حال «المحنة» و«الأزمة» لا يمكن أن يحدث إلا بسُننه الشرطية القابلة للفعل والتفعيل والفاعلية. هذا الخروج لا بد أن يمتلك الشرط التأسيسي بامتلاك الإرادة، وأن يستند إلى عناصر تأسيسية وبُنية أساسية من «العدّة» والاستعداد والإعداد، تؤكد واصلة الإدارة بين الإرادة والعدة.

إن هذه العملية بكل تكويناتها هي ما نطلق عليه «الإصلاح» أو «النهوض»، إلا أنه من غرض هؤلاء الذين لا يريدون لنا «إصلاحاً» أن يمؤهوا عليه وأن يتدخلوا فيه وعلى خطّه، حتى نكرة «الإصلاح» نفسه أو حتى كلمته؛ لجرد أنه يرد على ألسنة من لا يريدون بنا خيراً، أو يروجون لإصلاح زائف، ضالّ ومضلّ، لا يريدون منه إصلاحاً حقيقياً أو مكيناً: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ﴾ [البقرة: ١١]، ويطلقون وربما الأذى يغتصبون مفاهيم مثل الإصلاح والاعتدال. يطلقون هذا وذاك على عكس المقصود؛ فأصلاحهم ليس إلا عين الإفساد والتمزيق والتفتيت، والاعتدال ليس إلا الاستسلام والخنوع والتبرير للعود والوهن في انتظار السلام الموهوم، السلام كسراب بقيعة يحسبه الظمان ماء. إنها حيلة العاجز «السلام خيار استراتيجي» حتى لو كان العدو لا يعرف إلا لغة القتل مدعيًا حماية أئمنه فمنذ متى أمن اللص؟! إنه التلبس الحادث حينما تكون الكلمة كلمة «حق» يراد بها «باطل»، حق في محتواها، باطل في مقصودها. إنها المفارقات التي تتطلب

- (٤٤) صفاء زكي مراد، البديل، ٢٠٠٩/١/١٧.
- (٤٥) صلاح سالم زرنوقة، البديل، ٢٠٠٩/٢/٢٦.
- (٤٦) محمد السيد سعيد، البديل، ٢٠٠٩/١٢/٣٠.
- (٤٧) محمد السيد سعيد، البديل، ٢٠٠٩/١٢/٣١.
- (٤٨) عبد الغفار شكر، البديل، ٢٠٠٩/١/١.
- (٤٩) محمد السيد السعيد، البديل، ٢٠٠٩/١/١١.
- (٥٠) إبراهيم بيومي، البديل، ٢٠٠٩/١/٨.
- (٥١) سمير طاهر، البديل، ٢٠٠٩/٢/٢٠.
- (٥٢) مدحت الزاهد، البديل، ٢٠٠٩/١/٤.
- (٥٣) إبراهيم البيومي غانم، البديل، ٢٠٠٩/١/٢٩.
- (٥٤) سليمان الحكيم، البديل، ٢٠٠٩/٢/١.
- (٥٥) جمال عبد الفتاح، البديل، ٢٠٠٩/٢/١١.
- (٥٦) إبراهيم البيومي غانم، البديل، ٢٠٠٩/١/٢٢.
- (٥٧) محمد السيد سعيد، البديل، ٢٠٠٩/١/١٨.
- (٥٨) عماد جاد، البديل، ٢٠٠٩/٢/٨.
- (٥٩) محمد سلام، البديل، ٢٠٠٩/٢/١٠.
- (٦٠) إكرام يوسف، البديل، ٢٠٠٩/٢/١٣.
- (٦١) إكرام يوسف، البديل، ٢٠٠٩/١/٢٣.
- (٦٢) صادق نعيمة، البديل، ٢٠٠٩/١/٢٤.
- (٦٣) إيمان يحيى، البديل، ٢٠٠٩/١/٢٧.
- (٦٤) عبد الغفار شكر، البديل، ٢٠٠٩/١/٨.
- (٦٥) عادل المشد، البديل، ٢٠٠٩/١/١٩.
- (٦٦) صلاح صابر، البديل، ٢٠٠٩/٢/٦.
- (٦٧) محمد السيد سعيد، البديل، ٢٠٠٩/١/١٦.
- (٦٨) المصطفى صويلح، البديل، ٢٠٠٩/٢/٨.
- (٦٩) إيمان يحيى، البديل، ٢٠٠٩/٢/٣.
- (٧٠) كريمة كمال، البديل، ٢٠٠٨/١٢/٣١.
- (٧١) مدحت الزاهد، البديل، ٢٠٠٩/٢/٤.
- (٧٢) إبراهيم البيومي غانم، البديل، ٢٠٠٨/١/١٥.
- (٧٣) خالد البلشي، البديل، ٢٠٠٩/١٢/٣١.
- (٧٤) إبراهيم السايح، البديل، ٢٠٠٩/١/٣.
- (٧٥) خالد جمال الدين، البديل، ٢٠٠٩/١/٨.
- (٧٦) عماد جاد، البديل، ٢٠٠٩/١/٤.
- (٧٧) حسن عبدربه المصري، البديل، ٢٠٠٩/١/٣.

- (١٤) سيد البحراوي، البديل، ٢٠٠٩/١/٢؛ ياسر الزيات، البديل، ٢٠٠٨/١٢/٢٩؛ إبراهيم السايح، البديل، ٢٠٠٨/١٢/٢٩.
- (١٥) محمد السيد سعيد، البديل، ٢٠٠٩/١/٦؛ عاصم الدسوقي، البديل، ٢٠٠٩/١/٧؛ أحمد دراج، البديل، ٢٠٠٩/١/٢٩.
- (١٦) خالد البلشي، البديل، ٢٠٠٩/١٢/٢٩.
- (١٧) إبراهيم البيومي غانم، البديل، ٢٠٠٩/١/١؛ أحمد دراج، البديل، ٢٠٠٩/١/٤.
- (١٨) محمد السيد سعيد، البديل، ٢٠٠٩/١/٨.
- (١٩) أحمد دراج، البديل، ٢٠٠٩/٢/١٩.
- (٢٠) إبراهيم السايح، البديل، ٢٠٠٩/١/١٤.
- (٢١) عماد جاد، البديل، ٢٠٠٩/١/٤.
- (٢٢) أحمد عبد العظيم حسين، البديل، ٢٠٠٩/١/٢٥.
- (٢٣) سامر سليمان، البديل، ٢٠٠٩/١/٢٥.
- (٢٤) مسعد السبع، البديل، ٢٠٠٩/١/١٩.
- (٢٥) محمد السيد سعيد، البديل، ٢٠٠٩/٢/١.
- (٢٦) علي ميروك، البديل، ٢٠٠٩/١/١٩.
- (٢٧) مدحت الزاهد، البديل، ٢٠٠٨/١٢/٢٩.
- (٢٨) محمد السيد سعيد، البديل، ٢٠٠٨/١٢/٣٠؛ محمد السيد سعيد، البديل، ٢٠٠٨/١٢/٣١؛ عبد الغفار شكر، البديل، ٢٠٠٩/١/١؛ محمد الشافعي، البديل، ٢٠٠٩/١/٧.
- (٢٩) كريمة كمال، البديل، ٢٠٠٩/١/٧.
- (٣٠) نادر فرجاني، البديل، ٢٠٠٩/١/١٤.
- (٣١) مدحت الزاهد، البديل، ٢٠٠٩/١/٣.
- (٣٢) خالد الفيشاوي، البديل، ٢٠٠٩/١/٩.
- (٣٣) عادل المشد، البديل، ٢٠٠٩/١/٥.
- (٣٤) سامر سليمان، البديل، ٢٠٠٩/١/١١.
- (٣٥) عبد الغفار شكر، البديل، ٢٠٠٩/٢/٥.
- (٣٦) محمد السيد سعيد، البديل، ٢٠٠٩/٢/٣.
- (٣٧) مدحت الزاهد، البديل، ٢٠٠٩/٢/٩.
- (٣٨) أحمد بهاء شعبان، البديل، ٢٠٠٩/٢/٤.
- (٣٩) أحمد بهاء شعبان، البديل، ٢٠٠٩/٢/٤.
- (٤٠) عبد الفتاح ماضي، البديل، ٢٠٠٩/١/٣.
- (٤١) أحمد الخميسي، البديل، ٢٠٠٩/١/٣.
- (٤٢) مدحت الزاهد، البديل، ٢٠٠٩/١/٦.
- (٤٣) إبراهيم بيومي، البديل، ٢٠٠٩/١/٨.

(٨٠) انظر: د. سيف الدين عبد الفتاح، «الرحم الحضاري معركة الذاكرة

الحية وصراع المعاني» على الرابط التالي:

<http://www.aljazeera.net/NR/exeres/8878671C->

[AF60-4BA6-BA7A-5E1C16B11002.htm](http://www.aljazeera.net/NR/exeres/8878671C-AF60-4BA6-BA7A-5E1C16B11002.htm)

(٧٨) مدحت الزاهد، البديل، ١٨/٩/٢٠٠٩.

(٧٩) انظر: وليد سيف في مقالته الضافية «الصراع على المعاني

الصراع على الوجود: ستون عاما على النكبة» على الرابط التالي:

<http://www.aljazeera.net/NR/exeres/>

[31CB45B7-8778-43FB4E1C2B38C86EC37.htm](http://www.aljazeera.net/NR/exeres/31CB45B7-8778-43FB4E1C2B38C86EC37.htm)

